ابن أعثم الكوفي

ومنهجه التاريخي في كتاب الفتوح

تأليف

الدكتور محمد خير أبو سعدة

أستاذ التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية

المساعد بجامعة الأزهر

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى

١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ م

بسم الله الرحمن الرحيم

« وقل رب زدني علما »

مقدمة

الحمد لله حمدا كثيرا ، يبلغ رضاه ، ويوجب مزيده ، ويجير به من سخطه ، وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين ، ورسول رب العالمين ، صلاة تامة زاكية ، تؤدى حقه ، وتزلف عند ربه ، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم باحسان الى يوم الدين ، وسلم تسليما كثيرا .

وبعد :

يدعو المخلصون الغيورون من علماء الأمة ومفكريها الى الوقوف أمام هذا التراث الضخم ، الذى آل الينا من أسلافنا العظام صانعى الثقافة الاسلامية العربية ، موقف الاكبار والاجلال ، ثم نسمو برءوسنا فى اعتزاز وشعور صادق بالفخر والغبطة والكبرياء [1] .

ونحن لسنا مع هذه الدعوة الصادقة فحسب ، ولا نؤيدها بكل ما لدينا من طاقة وكفى ، وانما نضيف اليها دعوة حارة مخلصة أخرى ، ببذل أقصى المجهود الفردى والجمعى من القادرين كافة من أبناء الأمة فى سبيل جمع هذا التراث العظيم ، ونشره على خير وجه ، وأصحه ، وأكمله ، وذلك لصيانته والحفاظ عليه من جهة ، ومن جهة ثانية لاحيائه وازالة آثار القرون عنه ، وتجديد عطائه الهائل فى شتى فروع العلم والثقافة ، التى اقتحمها هؤلاء الأسلاف الكرام ، من علماء الاسلام والعربية ، ومن جهة ثالثة وأخيرة ، لنؤكد أننا خلف واع مستنير ، يقدر هذا العطاء السخى العظيم النفع حق قدره ، ويذكر الفضل — بكل تقدير وامتنان — لأهله وذويه ، ونثبت لهم ، ولأنفسنا ، وللملأ جميعا أننا على الدرب سائرون وللأمانة حافظون ، وفى طريق المعرفة على هدى خطواتهم ماضون ، ساعون بكل العزم والحزم واليقين ، الى

---

(١) عبد السلام هارون : تحقيق النصوص ونشرها — الطبعة الثانية ، مؤسسة الحلبى ص ٥ .

تأكيد حقيقة الدور الايجابى الخطير الذى يقوم به هذا التراث ، ويؤديه بقوة دائمة ومتجددة فى اثراء الحركة الفكرية والعلمية ، وانهاض أبناء الأمة الاسلامية ودفعهم باصرار الى تبوء مكانتهم ومنزلتهم اللائقة بهم بين أمم هـذا العالم ! •

ومما لا خلاف عليه بين علمـاء الأمة ومفكريها ، أن التاريخ — وما صنف فيه — يعد من أهم وأبرز الميادين التى تتضح فيهـا بجلاء رسالة التراث العربى الاسلامى ، اذ كان هـذا التراث — وما يزال — هو المورد الأصيل ، والمصدر الدائم المتجدد ، الذى نستقى منه علمنـا بالاسلام ، ونتعرف من خلاله تفاصـيل مسيرته ، وتطورات مراحله المتتابعة ، منذ أن بدأت ارهاصاته المبشرة به ، ومقدماته المعلنـة عنه ، الى أن أكمل الله للأمة الدين ، وأتم عليهم النعمة ، ورضى لهم الاسلام دينا ، فغمر ضوءه آفاق الجزيرة العربية ، وعمر قلوب الأمة العربية بسكينة الايمان وروعة اليقين ، ثم انطلق منهـا الى أرض الله الشاسعة يغرى أهلهـا بالدخول فيما سبق اليه العرب من نعمـة الله التامة ، ويرغبهم فى خيره الرحب ورحمته الواسـعة ••

ولا شك فى أننا جميعـا متفقون على أن علم ذلك كله بجملتـه وتفاصيله ، لم يكن ليتهيأ لنـا ، ولم نكن لنحصله ، لولا وجـود هذا الميراث الهائل من المصنفات التاريخية ، التى أكرمنا اللـه بهـا وآلت الينا من العلماء من سلفنا الصالح ، كل على قدر ما أتيح له من التحصيل والحفظ والاتقان والعلم ، والحرص ، والقدرة على حسـن التبليغ ، ودقـة الأداء • ولا ريب كذلك فى أن التفاوت فى طاقـات العلماء وملكاتهم الذهنية والفكرية ، ينعكس بالضرورة على قيمة وأثـر ما تركه كل منهم من النتاج العلمى ، ومن هنا ظهرت أهمية وضرورة الحاجة الى النظـر ، والفحص والتدقيق فى كل ما نصـل اليه من هـذا التراث العظيم والفكر النفيس ، خصوصـا أن الأثبـات من علمائنا ، والأفذاذ من النقاد والباحثين من رجال هذا العصر ، قد تبينوا

وتثبتوا من خلال اتصـالهم الدائم بتراثنـا ، وانكبابهم الموصـول على تحريره وتنقيته ، أن بعض الأيدى غير الأمينة قد امتدت الى هـذا التراث ، فعبثت به وشوهته ، وحاولت طمس بعض حقائقه ، واخفاء كثير من معالمه ، وتزييف ما ينطوى عليه من القيم ! •

وفى حضور كامل وتبين تام لهذه المعانى فى ذهنى ، وتنبه شديد لما تحمله من دلالات كبيرة وخطيرة ، كانت وقفتى الطويلة الهادئة ، مع واحد من هـذه الأعمـال ، قدر لـه أن ينفض عن نفسـه غبار السنين وركام القرون ، وأن يرجع الى الحياة — عودا على بدء — ، فتدور بكلماته ونبض ما تنطوى عليه من الأخبار والأفكار والآراء ، عجلة المطابع فى مؤسسة علميـة عزيزة على قلوب المسلمين ، وبخاصـة أهل العـلم بالتراث الاسلامى منهم ، وهى « دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن فى الهند » ، تلك المؤسسة التى أخرجت هـذا السفر التاريخى الكبير «كتاب الفتوح» لأبى محمد أحمد بن أعثم الكوفى ، المتوفى نحو سنة ٣١٤ هـ / ٩٢٦ م [٢] •

وحين وقعت يدى على هذا الكتاب التاريخى ، الذى لم أسـمع به من قبـل ، ولم تقع عينى على اسم مؤلفه قبل ذلك العـام وهو عام ١٤٠١ هـ الموافق لعـام ١٩٨١ م [٣] ، وكنت حينئذ أراجع بحثا عن آل المهلب وأثرهم فى دعم الحكم الأموى » ، لينال به صاحبه درجـة « الماجستير » فى التاريخ الاسلامى من كلية العلوم الاجتماعية بجامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية بالرياض • وقد شد انتباهى أن هذا

---

(٢) بدأت نشره فى عام ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م وفرغت منه فى عام ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م ، فى ثمانية أجزاء ، وعلى الرغم مما شاب هذه الطبعة — الأولى — من أخطاء كثيرة ، فان طبع هذا الكتاب جهد عظيم تستحق دائرة المعارف العثمانية عليه الشكر والثناء الجميل .

(٣) وكنت حينئذ أستاذا مشاركا بكلية الشريعة والدراسات الاسلامية بجامعة أم القرى بمكة المكرمة .

الباحث ، يرجع الى مصدر جديد على ، ومؤرخ لم أسمع اسمه يتردد بين سائر المؤرخين المسلمين قبل هذه المناسبة ! •

وهيأ الله الأسباب ، فعثرت على نسخة من « الفتوح » فى احدى المكتبات بمكة المكرمة ، وكأنما كنت واياه على موعد ! فما ان تملكت الكتاب ، حتى أفرغت ذهنى — الا من شواغل العمل — له ، فأخذت أقرأه ، وأمعن فيه النظر ، وأطيل التأمل ، وأدقق الفكر ، فرأيته كتابا فريدا مشوقا ، يكاد يكون غريبا فى بابه ، وبين أشباهه من التواريخ العامة فى الاسلام ، ولعلى لا أذهب بعيدا اذا قلت : اننى لا أعتقد أنى وقعت على نظيره ، أو طالعت مثيلا له ، وقد عزز هذه الخواطر فى نفسى ، وأكدها لدى أنى ما رأيت احالة عليه ، أو نقلا عنه ، أو رواية منه ، أو استنادا اليه من المؤرخين اللاحقين به ! •

ولا يذهبن بك الظن بعيدا ، أو يسرع الى خاطرك معنى لا أريده ولا أدعو اليه فى هذا المقام ، فالحق ، أن تفرد هذا الكتاب ، وغرابته بين سائر المصنفات التاريخية العائدة الى القرنين الثالث والرابع للهجرة ، انما يكمن ذلك فى جوانب شتى ، ينطوى عليها ويختص بها ، يراها الباحث التاريخى — وهو يتأمل الكتاب — فلا يكاد يخطئها ، ولا يغفل عنها ، وهذه الجوانب العديدة أو السمات الخاصة هى التى تجعل الباحث المدقق ، والناقد الفاحص فى تاريخ القرون الثلاثة الأولى للهجرة — وهى الاطار الزمنى الذى يتناوله فتوح ابن أعثم الكوفى — يقف من هذا الكتاب موقف الحذر والتردد بين القبول أو الرفض ، والرضا أو التبرم والسخط ، أمام طائفة كبيرة من روايات وأخبار ذلكم الكتاب الكبير ! فهل كان من الحق ، ومن صواب الرأى والفكر ، موقف أولئك المؤرخين الذين جاءوا بعد ابن أعثم — وهم كثيرون — أولئك الذين أجمعوا على تجاهله ، واطراحه جانبا ، فلا يكاد المرء يجد أحدا منهم قد أخبر به ، أو تحدث عنه ، أو أشار اليه فى بعض ما يورد من نصوص وأخبار فى كتابه ! ؟ •

ومما لا شك فيه أن هذا الاعراض العام عن ابن أعثم الكوفى ، وكتابه « الفتوح » موقف جمعى ، لافت للنظر ، مثير للانتباه ، يدفع الباحث فى تاريخ هذه الحقبة من تاريخ الاسلام المديد ، الى محاولة تفسير هذا الموقف ، ومعرفة الدوافع الحقيقية اليه ، لا سيما وأنه موقف كأنه قد سبق الاتفاق عليه بين المؤرخين ! •

ان هذا البحث الذى بين يديك هو هذه المحاولة — ولعلها الأولى فيما أعلم — التى أسأل الله مخلصا أن يكون فيها جواب عن جميع الأسئلة ، التى سوف تفرض نفسها بعيد الفراغ من قراءة فتوح ابن أعثم ! انها أسئلة عديدة ، وذات أهمية فى بابها ، وفى مجال البحث التاريخى على وجه العموم ، ونختار من بين أهم هذه الأسئلة مثلا : هل ابن أعثم الكوفى — صاحب كتاب الفتوح هذا — مؤرخ حقا (٤)؟ واذا قيل : « نعم » ، فما منزلته بين مؤرخى الاسلام ؟ وهل هذا الكتاب يمكن أن تنطبق عليه مقاييس التأليف التاريخى التى اصطلح عليها أرباب هذا الفن ؟ الى غير ذلك من الأسئلة التى لا أسترسل بايرادها هنا ، ولكنك سوف تجدها مبسوطة فى ثنايا هذا البحث ، وقد فصلنا القول فيها ، ووفيناها حقها من المناقشة والتحليل ، وتقديم المثل التى تزيد الأمر وضوحا وتبيانا •

لقد توخيت فى الفصل الأول من هذا البحث ، تقديم شخصية أحد كتاب التاريخ الاسلامى الأقدمين ، ولا أخفى أننى قد لقيت فى ذلك عنتا شديدا ، وواجهت صعوبة بالغة ، وأنا أحاول البحث عن شىء — أى شىء — ذى صلة بابن أعثم ، فلا أجد الا هذا النزر اليسير من الكلمات القلائل ، التى لا يكاد مجموعها يتجاوز بضعة أسطر ، لاغناء فيها — ولكن لا غنى عنها — ، وقد يلتمس القارىء الكريم عذرا لى،

---

(٤) قال بروكلمان عنه ، وعن كتابه هذا : كتب تاريخا قصصيا عن الخلفاء الأول وغزواتهم متأثرا بمذهب الشيعة ، دائرة المعارف الاسلامية — الترجمة العربية — ١/٩١ .